دراساتٌ أدبيّة:

القيم الأخلاقية في شعر الزهد عند داود تجاني أَدَيْكِيلْيَكُن

Ethical Values in the Poetry of Asceticism by Daud Tijani Adaikilaikun

Nilai-Nilai Moral dalam Syair Zuhud oleh Daud Tijani Adaikilaikun

عبد القهار عبد الوهاب الصارمي*

ملخص البحث:

الزهد ظاهرة نفسية عُرف له أثرٌ كبير في الشعر العربي منذ عصر الجاهلية، حين أخذ به قومٌ من نُسّاك النصارى ومن المتحنّفين، فانتشرتْ أفكار الزهد تحت تأثير الرهبنة النصرانية والتنسّك الحنفي، وشاع قسمٌ منه على ألسنة الشعراء، فظهر أوّل ما ظهر في تضاعيف القصيدة الحِكَمِية وغيرها، وما لبث أن استقلّ بنفسه، فكان ثمّة قصائدُ ومقطوعاتٌ مستقلّة، وأضحى له روّاده وعشّاقه وممثّلوه الحقيقيّون عبر العصور الأدبية العربية، إلاّ أنّه ازدهر ازدهارا ملحوظاً في العصر العبّاسي لعوامل منها السياسية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية، ثمّ أخذ الزهد مكانه عاليا في أغراض الشعر الغنائي العربي في كل زمان ومكان راج فيه الأدب العربي حتّى عصرنا الحديث. كلّ ذلك له أثره في الأدب العربي النيجيري وعلى الشعر بالذات، فهذا البحث يهدف إلى دراسة القيم الأخلاقية في "القصيدة الدّالية الزهدية" للشاعر النيجيري الراحل الدكتور داود تيجاني أَدَيْكِيْلَيْكُنْ. وتحتوي القصيدة على ما يقارب من مئة بيتٍ تتضمّن نصائح وحكما ومواعظ تستمدّ أصولها من المفاهيم والمبادئ الإسلامية. سينهج البحثُ المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي لدراسة مضمون القصيدة من الاتجاهين الأدبي والفنّي للتوصّل إلى قيمتها الإسلامية ومدى علاقتها بحياتنا الاجتماعية.

* دكتوراه في الأدبيات، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية– الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

الكلمات المفتاحية: شعر الزهد–الأدب العربي–الأدب العربي النيجيري–داود أحمد تجاني – القيم الأخلاقية.

Abstract:
Asceticism is a psychological phenomenon has a major impact in Arabic poetry since the age pre-Islam (jahiliyyah) and when, taken by some of Christians hermits and Abraham, the ideas of asceticism spread under the influence of Christian asceticism hermits and Abraham, and the common part of which was on the tongues of poets, some of these poetry appeared in the poetry of wisdom poems, then the poems, and became his patrons and admirers, and his representatives leave through the ages literary Arabic, but he flourished a remarkable boom in the Abbasid era special factors, including political, social, ethical, cultural, and then take asceticism place high in the purposes of Lyric Arab in every time and place where Raj Arabic literature until modern times. All of this has an impact in Nigerian Arabic literature in particular. This research aims to study the ethical values in the "deltoid ascetic poem" of the late Nigerian poet, Dr David Tijani Odikilin. It contains the poem on nearly one hundred houses with tips and arbitrator and the preaching of their assets derived from the concepts and principles of Islam. This study will follow historical descriptive methodology and analytical study of the content of the poem from both directions (perspectives) of literary and artistic value to arrive at the Islamic and the relevance of our social life.

Keywords: Poetry of Asceticism – Arabic Literature – Nigerian Arab Literature – Daud Ahmad Tijani – Ethical Values.

Abstrak:
Zuhud adalah salah satu sifat yang mempunyai kesan yang besar di dalam syair Arab sejak zaman jahiliyah yang mana tema ini digunakan oleh orang-orang kristian dan golongan anti berhala sehingga ianya tersebar secara meluas di bawah pengaruh agama masing-masing. Tema ini terkenal di kalangan penyair-penyair dan ia muncul buat pertama kali dalam kompilasi syair-syair hikmah dan sebagainya sehinggalah terbit kompilasi khas yang mengumpulkan syair-syair zuhud. Tema ini terus diminati oleh penyair-penyair dan peminat-peminatnya sepanjang zaman terutamanya ketika era pemerintahan Abbasiyah di sebabkan beberapa faktor seperti politik, sosial, moral dan budaya. Ianya terus mendapat kedudukan yang tinggi di dalam syair –syair Arab di setiap zaman dan tempat sehingga hari ini. Semua ini memberi kesan kepada kesusasteraan Arab di Nigeria terutamanya dalam penulisan puisi. Maka kajian ini bertujuan untuk mengkaji nilai-nilai moral dalam “Puisi-puisi Zuhud”

oleh penyair Nigeria Doktor Daud Tijani Adaikilaikun. Puisi ini terdiri daripada hampir seratus rangkap yang mengandungi unsur-unsur nasihat, hikmah dan pengajaran berdasarkan prinsip-prinsip islam. Kajian ini merupakan kajian deskriptif dan analisis sejarah yang mengkaji kandungan puisi dari sudut kesusasteraan dan kesenian sehingga dapat mencapai kedudukan yang tinggi sepertimana yang di kehendaki oleh islam serta mengkaji sejauh mana hubungannya dengan kehidupan masyarakat.

Kata kunci: Syair Zuhud- Sastera Arab- Kesusasteraan Arab Nigeria – Daud Ahmad Tijani – Nilai-Nilai Murni.

مقدمة:

الزهد – في معناه الشامل– هو الاتّجاه إلى الله وعدم الاشتغال بالدنيا، والانقطاع عن الشهوات، ونَهْيُ النفسِ عن الهوى، والقناعة بما قسم الله للمرء من الرزق، والرضا بالقليل، والغنى به، والاكتفاء بالحاجة، والرجوع إلى منابع الدين الحنيف والتحلّي بأخلاقه.

والزهد ظاهرة نفسية عُرف له أثرٌ كبير في الشعر العربي منذ عصر الجاهلية، حين أخذ به قومٌ من نُسّاك النصارى ومن المتحنّفين، فانتشرتْ أفكار الزهد تحت تأثير الرهبنة النصرانية والتنسّك الحنفي، وشاع قسمٌ منه على ألسنة الشعراء، فظهر أوّل ما ظهر في تضاعيف القصيدة الحِكَمِية وغيرها، وما لبث أن استقلّ بنفسه، بعد ان كان عبارة عن قصائد ومقطوعاتٌ مستقلّة، وأضحى له روّاده وعشّاقه وممثّلوه الحقيقيّون عبر العصور الأدبية العربية، إلاّ أنّه ازدهر ازدهارا ملحوظاً في العصر العبّاسي خاصةً لعوامل منها السياسية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية، ثمّ أخذ الزهد مكانه عاليا في أغراض الشعر الغنائي العربي في كل زمان ومكان راج فيه الأدب العربي حتّى عصرنا الحديث.

كلّ ذلك له أثره في الأدب العربي النيجيري وعلى الشعر بالذات، فهذا البحث يهدف إلي دراسة القيم الأخلاقية في "القصيدة الدّالية الزهدية" للشاعر النيجيري الراحل الدكتور داود تيجاني أَدَيْكِيْلَيْكُنْ. وتحتوي القصيدة على ما يقارب من مئة بيتٍ تتضمّن نصائح وحكما ومواعظ تستمدّ أصولها من المفاهيم والمبادئ الإسلامية. فسينهج البحثُ المنهج التاريخي الوصفي، والتحليلي لدراسة مضمون القصيدة من الاتجاهين (المنظورين) الأدبي والفنّي للتوصّل إلى قيمتها الإسلامية ومدى علاقتها بحياتنا الاجتماعية.

الزهد لغة واصطلاحاً

الزهد فى معناه اللغوي، يدور حول معانٍ عدّة منها: الورع وعدم الرغبة، فيقال زهد في الشيء إذا لم يرغب فيه.[١] والزهد قيمة إسلامية خالصة يستمد أصوله من مفاهيم الإسلام ومبادئه. وأما الزهد في معناه الشّامل، فيعني: "الاتجاه إلى الله، وعدم الاشتغال بالدنيا، والانقطاع عن الشهوات، ونهي النفس عن الهوى، والقناعة والغنى، والاكتفاء بالحاجة والعودة الى منابع الدين الحنيف والتحلي بأخلاقه"،[٢] ويصطلح الزهد على حنين الروح إلى مصدرها الأوّل لمعرفة الخالق عن طريق الزّهد في الدنيا ومتاعها والرغبة عن نعيمها وتفضيل نعيم الآخرة عليها.[٣]

ولم ترد مادة "زهد"[٤] أو مشتقاتها في القرآن الكريم إلا في موضع واحد منه وهو إلى الذمّ أقرب، وذلك في قصة يوسف (عليه السلام) عند قوله تعالى: "وكانوا فيه من الزاهدين"،[٥] وقد وردت مادة الزهد في السنة النبوية مرات عديدة كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "ازهد في الدنيا يحبّك الله، وازهد فيما عند الناس يحبّك الناس"،[٦] وألّف الإمام أحمد كتاباً كبيراً سماه "الزهد"، ونقل فيه مختلف الأخبار عن السلف في هذه القضية، مما يؤكد على أن مفهوم الزهد كان قائما لدى سلف الأمة حقيقة أكثر مما هو لفظ متداول. وقد ذكر الراغب الأصفهاني هذه المادة في مفرداته حيث قال: "الزهيد: الشيء القليل، والزاهد في الشيء: الراغب عنه، والراضي منه بالزهيد: أي القليل".[٧]

فإذا تأمّلنا المعنيين اللغوي والاصطلاحي للزهد، تبيّن لنا أن نصيباً كبيراً من الزهد يرتبط بالأخلاق الإسلامية، وأن هناك علاقة وطيدة بينهما، فالزهد يُعدّ من العوامل التي تُقوّي إرادة الإنسان، وتمنحه الثقة بالنفس، والأمل بالمستقبل، وقد اعتمد عليه الإسلام في سعيه إلى تهذيب السلوك الإنساني، وتربية النفس الإنسانية على القيم الإنسانية العليا والمثل السامية، والزهد ظاهرة نفسية كان لها أثر كبير في الشعر العربي.

شعر الزهد في الأدب العربي

مرّت الروحية العربية بمراحل عدّة وشهدت مؤثّرات عديدة، وبعد أن كانت تديّنا وورعا، تطوّرت إلى زهد ثمّ مع تطوّر الحياة العامّة تحوّلت إلى تصوّف تأثّر بالنظريّات الفلسفية. في العصر الجاهلي، كان شعر التديّن يظهر في صورة أبيات مفردة تأتي في ثنايا قصائد تُعالج غرضا ما، غير أنّ شعر التديّن في ذلك الحين كان عبارة عن حِكَمٍ متفرّقة أتتْ نتيجة التأمّل والتجربة، فجاءت صادقة تتعلّق بالموت وما بعده. وفي أواخر العصر الجاهلي افتقرت الجزيرة العربية إلى الإصلاح الديني، وتهيّأت لظهور الدين الجديد، وقد لاحظنا هذا في بعض القصائد الجاهلية التي اقتربت معانيها من معاني الإسلام، بطبيعة تأثير الديانات السابقة. وكان عدي بن زيد المشهور بالوعظ والتذكير من الشعراء المتعبّدين المتنسّكين قبل الإسلام،

المتحنّفين والمتلمّسين لدين سيّدنا إبراهيم (عليه السلام)، ومنهم المأمور الحارثي، وأُكثُم بن صيفي، وورقة بن نوفل، وأبو القيس الراهب، وأميّة بن أبي الصلت،[٨] وقيس بن ساعدة الأيادي.

وفي صدر الإسلام، خفَتَ صوت الشعر في البداية ثمّ انطلق يُدافع عن الإسلام، ويَمدح الرسول محمد (صلى الله عليه وسلّم)، وكان حسّان بن ثابت أشهر وأشعر شعراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذين دافعوا عن الإسلام، ونشروا تعاليمه، وهكذا بدأت في هذا العصر تظهر معاني الإسلام بوضوح في الشعر فتدعو للمعروف وتنهى عن المنكر وتُذكّر بثواب الله وعقابه. لكنّ الإسلام وتعاليمه لم يقدر على ردع الفتن التي نشأت بعد الخليفة الثالث، عثمان بن عفّان (رضي الله عنه)، وتتالت الفتن وتعدّدت على أثر الخلاف السياسي بين علي ومعاوية، ثمّ بين الحسين ويزيد (رضي الله عنهم أجمعين)، ممّا دفع ببعض المسلمين إلى إنكار هذه الحوادث فعكفوا في بيوتهم حيث انصرفوا للعبادة وتركوا أمور الناس حتى يحكم الله بينهم.

خلال هذه الاضطرابات السياسية العامة، والصراع المذهبي، والفساد الأخلاقي، هرب الزهاد بأنفسهم من زيف الحياة ولجؤوا إلى الورع مُقْبلين على القرآن والسنة الشريفة. فنشط بينهم الدّاعون إلى الله يُذكّرون النّاس بتعاليم الإسلام، فيعظونهم ويُحذّرونهم محاولين تطبيق الشريعة الإسلامية قدر المستطاع.[٩]

وفي العصر العبّاسي، تطوّر الزهد بوصفه ردّ فعل وتيّارا مُضادا لموجة الزندقة التي انتشرت بين الناس، وأصبح للزهد شعراء مختصون هجروا ملذّات الدنيا وانقطعوا للعبادة، فأفردوا شعرهم للزهد، فتطوّر معهم الزهد وأوغل في الروحانية والفلسفة والحكمة، منهم أبو العتاهية الذي سخّر شعره للحكم والمواعظ يُذكّر فيها بتقلّبات الدّهر ويُصوّر الآخرة وأهوالها. وقد توجّه بعض الشعراء الذّين عُرفوا بالمجون في العصر العبّاسي، في آخر أيّامهم نحو التوبة وبدت في أشعارهم نزعة الزهد الخالص كما وجدنا في شعر أبي نواس الذي أصبح زاهداً بين يوم وليلة،[١٠] وفي أشعار شعراء آخرين الذين اتخذوا الزهد مذهبا في الحياة، ودعوا إليه، ونعوا على الناس والخلفاء إغراقَهم في الانصراف إلى الدنيا وإلى المال.[١١] وقد وصل الزهد إلى قمّته مع بعض شعراء التصوّف الذين سعوا للاتصال بالله تعالى والتعرّف إلى سرّ جلاله وأظهروا حبّهم له ووجدوا راحتهم في مناجاته.

راج الزهد في الشعر الأندلسي وازدهر ازدهاراً ملحوظاً، حتى غدا تيارّاً واسعاً وعميقاً، فقد كثر من قال فيه كثرة لافتة، فمنهم من قصر شعره على مذهب الزهد، ولم يتجاوزه إلى غرض آخر، ومنهم من تناوله ضمن أغراض أخرى، وكان الباعث الديني من الورع والتقوى من العوامل الأصيلة التي عملت في تقوية نزعة الزهد في نفوس الأندلسيين، فضلاً عن عوامل أخرى سياسية واجتماعية وثقافية ونفسية.[١٢]

وهكذا شهد الشعر العربي على مرّ العصور وحتّى عصرنا الحديث شعراءَ اهتمّوا كثيرا بالدعوة للعودة إلى أصول الشريعة والتخلّي عن الماديات، وقد امتدّ تيّار هذا الفنّ الشعري إلى الأدب العربي في غرب أفريقيا بما فيها بلاد نيجيريا.

شعر الزهد في الأدب العربي النيجيري

كان الوعظ والإرشاد والحكم والأمثال والزهد والتصوّف من موضوعات الشعر العربي التقليدية التي انشغل بها علماء بلاد نيجيريا منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وكلّها في إطار الشعر التعليمي.[١٣] فرأينا منهم من كان يميل إلى قول شعر الزهد والتصوّف، فاختص بهذا الفنّ في شعره وسلك فيه طريق المتصوّفين، وإن كان الزهد والتصوّف فناّ مستقلاّ في الشعر العربي إلا أنه في بلاد نيجيريا، ومنذ تلك المدة، لا يختلف كثيراً عما كان العلماء يقولونه في الوعظ والإرشاد حيث إنهم يحثّون فيه الناس على التزهد وعلى التخلّق بالأخلاق الحميدة ويُحذّرونهم من الدّنيا وغدرها، ويُنبّهونهم على ما يرونه من الفساد بين الناس وفي الزمان،[١٤] كما ينصحون إخوانهم المسلمين بالاتصاف بهذه الأخلاق الفاضلة، بحجّة أن الدنيا دنيئة لا قيمة لها ولا وزن، فسوف تفنى ويفنى كل ما فيها؛ ولذلك ينبغي تركُها وراء ظهورهم والانشغال بالآخرة الدائمة والأبقى.[١٥]

فبهذا الفن الشعري يوجّهُ العلماءُ الناسَ إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ويصرفونهم عن غرور الدنيا وزخرفتها، ويُذكّرونهم بالموت وما بعده، ثم يوصونهم بتقوى الله، ويعظونهم بالانقطاع إليه والثقة به، وحبّ الذات الإلهية حبّا صِرفا الذي لا يقوم على خوف من عقاب ولا على رغبة في ثواب.[١٦]

ومن جيّد ما قيل في شعر الزهد والتصوّف هذه الأبيات من مقطوعة لمحمد بللو:

وكم عشت في غرة وعماء	وجهل ولهو وأنت صبي
ألا فانج واسلك سبيل الرشاد	ولا تسه عما يقول الحفيّ
ومن ملك النفس عمّا تريد	وأتبعها الحقّ فهو القوي
وأن القناعة رشد كثير	وصاحبها الدهر خل غني
وذو الحرص ما إن يزال فقيرا	وأن الحريص لئيم شقي
ومـن راقب الله في أمره	وجاهد فيه فذاك التقيّ[١٧]

ويتجلّى بوضوح ما في هذه القطعة من الحكم والأمثال والزهد، قصد بها الشاعر وعظ متلقيه وسامعيه وإرشادهم إلى ما فيه السعادة الدنيوية والأخروية. ومثل ذلك قول محمد سمبو في الزهد وحسن الأخلاق:

يا من يحب أخا محباً ناصحا	اسمع كلامي قد ظفرت ببغية

عاهدت ربي في إتباع محمد ... في كل أمر مخلصا لمحبّة
وقد اقتديت بنوره في فعل مأ ... مور وترك محرّم والشبهة
والزهد في الدنيا الدنيئة إنها ... خدّاعة والاشتغال بآخرة
والجود والحلم الكثير مع الرضا ... والبشر للمولى وحسن العشرة
وتواضع وكرامة وشجاعة ... وعيادة المرضى كابن عبادة
ومحبّة الفقراء والأيتام وال ... إحسان للمملوك دون نكاية
وصفاء أسرار وذكر دائم ... ومحبّة المولى خلت عن علّة
ولقد وصلت بنوره للحضرة ... حتّى حظيت بخلّة ومحبّة
وقد اقتديت بنوره في دعوتي ... لله متبعا طريق الخاصة [١٨]

فهاتان القصيدتان من أحسن ما قاله علماء بلاد نيجيريا في الزهد والتصوّف، ومن يُنعم النظر فيهما يجد أنّهما تحتويان على تصوير الدنيا ودناءتها وغدرها وخداعها، مما يُحتّم على العاقل الإعراضَ عنها والتنحّي عن إتباع الشهوات فيها. وكذلك يُلاحظ ما تتضمّنه هذه الأبيات من حثّ المرء على التحلّي بالصفات الحميدة والتخلي عن الشيم الذميمة. فهذه هي صورة لشعر الزهد عند علماء نيجيريا، ويوجد في هذا الغرض أمثلة أخرى كثيرة من شعرهم، لاسيما بعد أن تطوّر الشعر العربي بينهم وأنتجوا كمّا كبيرا في أغراض شتّى، غير أننا سنكتفي هنا بهذا القدر لضيق المجال.

من هو داود تجاني أَدَيْكِيلَيْكُنْ؟

وُلد الدكتور داودُ تجاني أَدَيْكِيلَيْكُنْ سنة ١٩٤٤ الميلادية[١٩] في بلدة أَيْدَيْ، ولاية عَوْشُنْ، جنوب غرب نيجيريا، تعلّم القرآن الكريم على والده، وأخذ مبادئ الدراسات العربية والإسلامية من بعض مشايخ بلدته، ثمّ التحق بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة إبادن، نيجيريا، وحصل على شهادة البكالوريوس، فالماجستير، ثمّ أخيراً، حصّل الدكتوراه عام ١٩٩٠ من الجامعة نفسها، فعُيّن محاضرا في القسم لنبوغه وامتيازه بين زملائه، وبقي بقسم اللغة العربية مدرّسا للأدب العربي، وعلم العروض خاصة، إلى أن وافته المنيّة في شهر نوفمبر، ٢٠٠٦ وهو ابن ثلاث وستين سنة، ترك قصائد عربية جيّدة في شتى الأغراض منها قصيدته الموسومة بـ"**القصيدة الدّالية الزهدية**" موضوع هذا البحث.

عناصر الزهد في القصيدة الدالية للدكتور داود أحمد تجاني أَدَيْكِيلَيكُنْ

تنوّعت المضامين التي صاغ منها الشاعر داود تجاني موضوعات شعره، وتعدّدت هذه المضامين باختلاف حالاته النفسية، ومن العوامل المؤثّرة في تنوّع موضوعات الزهد واختلاف أفكارها، ورؤية الشاعر الفكرية، ونزعته الصوفية، ومدى تقبله لحالاته النفسية، ودرجة اقتناعه بالتعاليم والحقائق الصوفية.

ولم تقتصر **"القصيدة الدالية الزهدية"** على فكرة واحدة أو مضمون واحد، بل جمع الشاعر بين مضمون وأكثر من مضامين الزهد في هذه القصيدة، وأورد فيها معاني مختلفة زهدية. ولقد استمدّ الشاعر عناصر زهدياته ومضامين شعره من مصادر إسلامية، أساسها القرآن الكريم، والحديث الشريف، واستمدّها أيضا من دعوة علماء الدين، ورجال الفقه الإسلامي في عصور مختلفة، ومن وعظ الوعاظ، حتىّ أضحى لديه معينا خصبا، يمدّه بإمدادات فكرية مجدية، يصوغ منها موضوعاته الزهدية.

وتأتي خبرة الشاعر في الحياة، ومعاناته لها، ومعاملته مع الدّهر، ورؤيته للزمان، في مقدمة المراتب التي كان لها تأثير في صياغة الأفكار الزهدية عند داود تجاني في حالاته النفسية. فقد أمدّ ذلك كلُّه الشاعرَ بأفكار زهد إيجابية صادقة، حين تنبع من تجربته التي عايشها، حيث عبّر بصدق عمّا أحسّ به، ففي أكثر حالاته، يبدو مخلصا في قوله حين يصدر في زهده عن تجربته الخاصة، وعن معاناته الذاتية، فتأثّر بدوافع خاصة، وصور تجاربه في الحالة الزهدية. ومن أبرز **عناصر الزهد** في قصيدته الدالية التي احتوت على موضوعات شتى، وركزت فيها على هذه النقاط:

الوعظ والإرشاد الدّيني

وهو من أهم الموضوعات التي نجدها عند داود تجاني، حيث إنه ركّز عليها في شعره، وكانت غايته من ذلك دفع الناس التخلي عن الاهتمام المفرط بأمور الدنيا، تلك الأمور التي فَتَنَتْهُم وصرفتهم عن دينهم وربّهم، وطلب من سامعيه وقارئيه التمسّك بأهداب الدين والعودة إليه، إذ فيه الخير كلّه والسعادة كلّها في الأولى والآخرة. ومثال ذلك في داليّته الزهدية قوله:

تميل إلى البَطالة كلّ يوم ... فما لك لا تميل إلى الرّشاد

فكيف تنال حظَّ ذوي المعالي ... وهمّك في تذوّقك السّلاد[٢٠]

لباس الأصفياء لباس تقوى ... وشغلك بالحرير وبالجكاد[٢١]

فكيف تنال فوز رجال صدق ... هُمُ الأحيا وإنك كالجماد

وكيف تنال مقعد أهل صدق ... وإنّك في البَطالة والعناد

وإن شئت السعادة والفلاح ... فكُنْ مُتيقّظاً بين الرّقاد[٢٢]

ولا يخفى على الأديب ما في هذه القطعة من الوعظ والإرشاد يحثّ به الشاعر على الزهد في الدنيا والورع، وإنها لنصيحة أراد بها مصلحة الإنسان، وقصد بها خيره ومنفعته، فقد حاول بها صرف عنان الإنسان عن البَطالة، وتسديده إلى طريق الرشّاد، حتّى ينتظم في سلك ذوي المعالي دنيا وآخرة. فخير لباس وأجمله بالنسبة للشاعر، لباسُ التقوى، لباسُ الأصفياء ولا لباسُ الحرير ولا "الجكاد"، وقد نعى سوء حال من جعل كل همه في تذوّق الطعام وأكله. فمن كانت الدنيا منتهى غايته فهو كالجماد لا حياة فيه، ومن كانت الآخرة مبتغاه فهو ممن يحيى بعد موته، وينال عند ربّه مقعد صدق، ومن يبتغ السعادة والفلاح في الدارين فعليه أن ينتبه ويستغلّ فرصة الحياة خير استغلال، ولا يكون أعمى في هذه الحياة الدنيا فيكون في الآخرة ثانية أعمى وأضلّ سبيلا.

الزجر عن حبّ الدنيا، والتغافل عن الآخرة.

فيه يُصوّر الشاعر حال من اتخذ الدنيا ميدانا للعب واللهو، ودارا للتمتّع بالأكل والشراب وملامسة النساء، وموطناً للراحة والرّقاد، فهو يروح فيها ويغدو لاعباً لاهياً، متغافلاً عن الآخرة والرجوع إلى المعاد. وكأن الشاعر يستدعي قوله سبحانه وتعالى: "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا تُرجعون"،[٢٣] حيث قال الشاعر:

أراك تعيش كالخنزير دهرا وتلعب بالتراب وبالرماد
وشغلك دائما أكل وشرب كذاك تمتّع بذوي الوداد
تنام على الأسرّة طول ليل كأنّك في مسابقة الرّقاد
تروح وتغتدي لعبا ولهوا بحبّك سلوةً وهوى سُعاد
تميل إلى المهالك والمساوي كأنك لن تعود إلى المعاد[٢٤]

وما هذه الأبيات إلا موعظةٌ وتذكرةٌ لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، بعد أن كان على غفلة وضلال من أمور دينه.

الشباب والبكاء عليه، والشيب والاتعاظ به

لقد وجد الشاعر داود تجاني نفسه أمام رصيد ضخم من المعاني والأخيلة عن الشباب والشيب، فاستعان بها في قوله وفي تصويره، وساعده ذلك على تجديد فكرته، وعلى الابتكار في الصورة حتى لا يملّ القارئ من رتابة القول، ومن تكرار التصوير. فإذا ذكر الشباب قابله بالشيب ممّا ينمّ عن الندم على فوات الشباب والبكاء عليه، وينبئ عن الحزن على مجيء الشيب، ولزوم الاتعاظ به. والشيخوخة مرحلة في حياة الإنسان عامة، وتختلف بالضرورة عن مرحلة الشباب، فإذا كان الشباب مرحلة القوة والسعي وراء

الملذّات، وتلبية الرغبات الشرسة في طبيعة الإنسان، فإن الشيب مرحلة الضعف والتسليم والتفكير والتأمل، وتلبية النزعة الروحانية.[٢٥]

وكثيرا ما تميل طبيعة الإنسان في وقت الشباب إلى الماديات، فيصرف الإنسان نشاطه في تحصيلها، فيُلهيه التكاثر في الماديات عن التأمل، وتُطغيه القوة، وحين يقف المرء على عتبة الشيخوخة ويحسّ بالضعف، فإذا به يقف موقف المتفكر في الحياة لطبائع الناس، ويقيس الأشياء والنظائر، ويقابل بين النقيض ونقيضه، ويجمع بين السبب والنتيجة، ويحاول أن يتبين العلائق بين الأشياء، ويتخذ لنفسه قواعد يسير عليها في حياته، تُعوّضه عما فقده من قوّة الشباب وحيويته، فيحاول أن يفهم الحياة بعللها، ولا يلبث أن يجد نفسه قد زهد في الدنيا.[٢٦]

والبكاء على الشباب والاتعاظ بالشيب من أهم الأفكار والمضامين التي تناولها الشاعر داود تجاني، ولقد تطرّق كثيرا إلى هذا المعنى بعد أن ولّى عنه الشباب ونزل به الشيب وأقبل، ومن ذلك قوله:

أَلَمْ يأْنِ التزوّد للمعاد	ونور الشّيب فوق الرأس باد
كفى للمرء تذكرة ووعظا	بياض ذؤابه بعد اسوداد
إذا جاء المشيب إليك فاعلم	بأَنْ القمح يقرب للحصاد
فإن الشّيب فوق الرأس صوتٌ	أراه أتى إلى التّقوى يُنادي
وإن مشيب رأس المرء صوت	يقول لقد دنا يوم التّنادي
كأنّك لم تزل طفلا صغيرا	ونور الله تحت الذّقن باد[٢٧]

ولقد قارن الشاعر بين الأمرين (الشباب والشيب) وجمع بينهما في صورة واحدة، كما فعل شعراء كثيرون قبله في عصور مختلفة كأبي العتاهية، والشريف المرتضى وأبي الشيص وأبي نواس.[٢٨] ويدعو الشاعر إلى الاتعاظ بالشيب، حيث يرى أن الحياة يشبّ فيها المرء يوما، ويوما يشيب فيها. وقد صوّر إنذار الشيب للمرء، ونهيه عن التمادي في الباطل والمعصية، ونصحه بالتزوّد للرحيل الأكبر بالإيمان والتقوى، إذ يرى الشاعر في الشيب نذيرا بالفناء والهلاك، وعلامة تعقّل، وأمارة اتزان، وحياة جدّ يملؤها الوقار والحكمة.

القول في التوبة والاستغفار، وطلب العفو، وتسبيح الله وحمده، وطلب الرحمة

عبّر الشاعر داود تجاني عن التوبة والاستغفار وطلب العفو، وتسبيح الله وذكره، وطلب رحمته. والتوبة في الحقيقة أوّل المراحل التي يمرّ بها العاصي المذنب بعد أن أقلع من عصيانه وغيّه، متمنّيا التوبة، ومحاولا لها، باذلا جهده في الخروج من الضلال، مستنصراً على نفسه، وعلى شياطين الهوى. والتوبة من أصدق

المضامين التي تشتمل عليها دالية شاعرنا الزهدية، وقد سيطرت عليه إلى درجة الإفصاح بألفاظها، وتصوير معانيها. تدبّر معي هذه الأبيات من القصيدة الدالية الزهدية، فسترى صدقية ذلك:

تيقّظ يا أخي وتب نصوحا ... لتشهد نور ربّك بالفؤاد
لقد آن التَّزوّد للمتاب ... فَمِلْ ميلا إلى سبل الرَّشاد
ولم يُر فيك إقبالٌ لخير ... سوى إقبال نفسك للعناد
ولم تُر ذاكرا ربّ البرايا ... الذي رفع السماء بلا عماد
أترغب أن تكون رفيق قوم ... لَهُمْ زاد وأنت بغير زاد
فإن شئت النّجاة من المساوي ... فَتُبْ حالا فذا زاد المعاد[٢٩]
فبذل العلم شغل ذوي المزايا ... وهُمْ في بذل علم كالعقاد
فذكر الله منهجهم جميعا ... حباهُمْ ربّهم فوق المراد[٣٠]
تَمذهب مذهب العُقلاء أعني ... رجالا مِن عباقرة الزّهاد

ويتبين من الأبيات السابقة أن الشاعر تعرّف على التوبة النصوح بوصفها أمارة من أمارات الزهد، وشرطاً من موجبات رحمة الله، وأوّل زاد يتجهّز به العبد للقاء الربّ، وقاعدةً يلتزم بها الزهاد، وكذلك جعل الشاعر ذكرَ الله وتسبيحه وحمده من أعمال الزّهاد، وطلبَ العلم وبذله من شغلهم، فمن أراد نيل عفو ربّه، والفوز برحمته، عليه أن ينهج منهج هؤلاء الزهاد، ويتمذهب بمذهبهم.

القول في الموت والرحيل وصورة القبر وذكر البعث

لقد صبغَ إيمانُ هذا الشاعر بحقيقة الموت وبالبعث والحساب، كثيراً من معاني زهدياته، فلم يستخفّ بحتمية هذا المصير، ولعل هذا الإحساس من دوافعه إلى قول الزهد، وتزهيد الناس في الدّنيا، حيث غلب على شعره ألفاظ الموت والفناء والرحيل والقبر. فهو ينظر إلى الموت وإلى القبر بتشاؤم شديد لمن أساء في الحياة الدنيا، وبتفاؤل واسع لمن عمل صالحا في الحياة الأولى؛ ولذلك أكثر من الصور المفزعة، ومن الأخيلة المخيفة ليُرهب نفسه، ويُرهب الآخرين، ويزهّدهم في الدنيا. فكان تصويره للموت والرحيل والقبر دافعاً على التقوى وإلى الزهد، وإلى التوبة والاستغفار والإقبال على الحياة بروح زكيّة. وقد عبر عن حقيقة الموت وعن حتمية المعاد، فرأيناه يقول:

وإن المرء نحو القبر يدنو ... ويصرف عنه كلّ ذوي الوداد
هناك المرء يُترك فيه فردا ... هُناك غدا ينام بلا وساد
ولو أَنَّا إذا متنا تُركنا ... لكان الموت راحة كلّ فرد
ولكنّا إذا متنا بُعثنا ... ويسأَلُنا الإله عن المزاد

وإن المرء بعد الموت يلقى بالأملاك الغلاظ وبالشِّداد
وعن كلّ ما جناه ليُسألُنَّ فيذكر كلّه عند انفراد[٣١]

فهو يذكر كيف يُفرّق الموت بين الأحبّاء، ويذكر الوحشة في القبر، والأهوال فيه. وقد أتى الشاعر بهذه الألفاظ والمعاني والصور المتعلّقة بالموت والقبر والبعث ليشبع نفسه وقارئيه من التقوى ومن الزهد والنسك، لعل ذلك يحفّزهم إلى طلب عفو ربّهم والاستعداد لهذه الحقيقة ولهذا المصير الذي لا مفرّ منه لكلّ إنسان.

القيم الأخلاقية في "القصيدة الدّالية الزهدية" للشّاعر النيجيري داود تجاني أديكيليكن

تعدّ الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة والتمسك بالخصال الحميدة مبدأ جوهرياً من مبادئ الإسلام وتعاليمه، فقد أحاط الإسلام المجتمع بمنظومة من القيم الخلقية، ووضع للأخلاق قواعدَ يتمّ على أساسها تربية النفس وتهذيبها، منها: القناعة والتوكّل على الله والصبر والتقوى والتزام الصدق والوفاء والحياء والسخاء، كما أنه ذمّ النقائص الخلقية التي ينزلق إليها ذوو النفوس الضعيفة مثل: الحسد والتكالب على موارد الرزق والإقبال على الدنيا والكبر والحقد والجبن والكذب وسوء الظن بالنفس وبالغير.[٣٢]

وتمثل الدعوة إلى التحلي بالأخلاق النبيلة، والآداب الإسلامية السامية اتجاهاً بارزاً من اتجاهات شعر الزهد، فلقد أذاع شعراء الزهد دعوة واسعة إلى القيم الخلقية، وانتصروا لها، وفاضت قرائحهم بقصائد شعرية عديدة فيها، وشكلت تلك الدعوة منطلقاً أخلاقياً بارزاً في أشعار كثير من الزهاد، فللأخلاق فى حياة الزهاد شأنٌ عظيم، لارتباطها الوثيق بمفهوم الزهد ونزعته العامة، إذ إن كثيراً من شعراء الزهد هم شعراء أخلاق وآداب إسلامية.

وما دامت الحياة فانية، وكل شيء فيها إلى زوال، فلتكن الأخلاق هي الزاد الذي يتزود به الزاهد في رحلة الحياة الدنيا، والجسر الذي يعبر عليه إلى عالم الآخرة، فقد وجدَ الزهاد في الأخلاق العزاء لما فقدوه في مجتمعهم من مُثل وقِيم، وأَلِفوا في التحلي بها المفر من وجه الحياة المتجهم.

فالزهد عند الزاهد داود تيجاني، إنما هو التقوى والورع، والأدب الحسن والخلق الرفيع وفعال حسنة، والتزود للآخرة بالعمل الصالح. ومن القيم الخلقية البارزة التي جسَّدها هذا الشاعر في زهديته، قيمة الصدق والإخلاص في العمل وزرع الجميل من المساعي وتجنّب ما يقود إلى الفساد، كالغيبة والنميمة، للاتصال الوطيد بين هذه القيم وبين نزعة الزهد، وقد قال:

فمن زرع القبيح بلا حياء سيندم باكيا يوم المعاد
ومن يعمل بصدق القلب خيرا سيظفر بالنّعيم بلا نفاد
ومن زرع الجميل من المساعي تطيب ثماره يوم الحصاد

تنبّه يا أخي وافعل جميلا وجنّب ما يقود إلى الفساد
وهمّك دائما قيلٌ وقالٌ ونقل القول عن عمر وزيد[٣٣]

ومن القيم الخلقية التي تغنى بها الدكتور داود تجاني، وأشاعها بين الناس غبط الناس على الخير، وعدم بغض أهل المكرمة، وترك حسدهم. ويكمن تحت هذا المعنى خُلق القناعة، والرضا بما قسم الله للعبد، ويتضمّن فيه التنفير من الطمع والجشع الذي ينتاب الإنسان من جراء التفكير الطويل في حب المال والجاه، وهو سيّد الصفات التي يتحلى بها الزاهد، وعليه قال الشاعر:

وكيف تنال تاج ذوي الولايةْ وأنت لأهل مكرمة مُعاد[٣٤]

وإلى جانب ذلك، حثّ الشاعر على الإحسان في السرّ والجهر، والوفاء بالعهد، والسعي بالجدّ، والحزم والجلد، والجود والكرم، كما يفهم من أبيات شعره الآتية:

تمذهب مذهب العقلاء أعني رجالا من عباقرة الزّهاد
رجالا أحسنوا سرّا وجهرا فأدناهُم إليه ربّ العباد
رجالُ فصاحة وحُفاظ عهد رجال مناقب مثل ابن وردي
رجال صدّقوا ما عاهدوه تهادوا واهتدوا سبل الرّشاد
فما وهنوا وما ضعفوا وكانوا إذا اشتدّ الوغى فحل القواد
ببذلهم النّفائس والنّفوس لقد ورثوا مقامة أهل جَود[٣٥]

ويُلاحظ كيف أنّ الشاعر استوحى كثيراً من مضامين شعره في الزهد من مصادر الشريعة الإسلامية (القرآن الكريم والحديث الشريف)، والأقوال المأثورة لبعض الوعاظ الزهاد والقصاص، وربط ذلك كلّه بتجاربه الذاتية، ونظرته الخاصة إلى الحياة، فضلاً عن أن مفهوم الزهد لديه كان انعكاساً لأحداث المجتمع وتقلباته الاجتماعية والسياسية، ولأخلاق أفراد المجتمع.

وإذا تأمّلنا مضمون "القصيدة الدّالية الزهدية"، للشاعر داود تجاني، نجدها تضع أسس السلوك المثالي فى المجتمع الذي يتعين على أفراد المجتمع فى كلّ عصر انتهاجها، وكانت هذه القواعد السلوكية مبنيةً على أسس التربية الإسلامية.

وهذه النصائح والحكم والمواعظ المضمَّنة في زهدية هذا الشاعر النيجيري، وإن كانت مستفادة من القيم الإسلامية، فإنها تنبع خالصةً من دوافع الشاعر الذاتية، وتُعبر عن تجربته العميقة، وهى ثمرة من ثمار خبرته الطويلة فى التعامل مع الناس، فجاءت فى مجملها نظرات صائبة فى الحياة والناس.

وقد أورد في زهديته أبرز حكم خلقية هي نتاج تجربة ذاتية، وخبرة طويلة فى الحياة، مكّنته من أن يستخلص من أحداثها دروساً مستفادة، وعبراً مَعيشة، وهو يبسطها فى معرض ديني، ويتناولها من وجهة

نظر الزاهد المتعبّد، فقد أكثر من الدعوة إلى الفضائل الرفيعة، والمثل الخلقية العليا، وحضّ على تجنّب الرذائل، وذميم الفعال، هادفاً بذلك إلى تهذيب النفوس وإصلاحها، وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس.

الخاتمة:

ويُلاحظ مما سبق في السطور أن الشاعر داود تجاني في دعوته إلى التحلّي بالقيم الخلقية قد سلك طريق الحكمة الزاهدة التي تنبع من تجاربه الذاتية، ونظرته الخاصة للحياة، ومن حرصه على تقديم النصائح للناس في وقت كان كلّ مجتمع في أشد الحاجة إليها.

وقد أتى شعره في الأخلاق والآداب الإسلامية مُدْبَجاً بشعر الحكمة، إذ يتخذ من الزهد منفذاً لشعر الحكمة، بيد أن تلك الحكمة الزاهدة قد اتخذت في زهديته طابع العظة والعبرة، وجاءت على شكل نصائح وعظات مباشرة، تقريرية الأسلوب، تفتقر لحرارة التجربة المعيشة. ولعل إلحاح هذا الشاعر على الالتزام بالقيم الخلقية والآداب الإسلامية يقدر لأن يحسّن أوضاع بعض المجتمعات التي قد فسدت أخلاقيّاً.

هوامش البحث:

[١] انظر: محمد، سراج الدين، **الزهد في الشعر العربي**، (بيروت: دار الراتب الجامعية، د. ت) ص٥.

[٢] انظر: حمدان، عبد الرحيم حمدان، **القيم الخلقية في شعر الزهد في الأندلس** – www.diwanalarab.com بتاريخ ٠١ – ١٢– ٢٠٠٩.

[٣] انظر: محمد، سراج الدين، **الزهد في الشعر العربي**، ص٥.

[٤] انظر:عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: نشر دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ص٣٣٢. مادة "زهد"

[٥] سورة يوسف، الآية٢.

[٦] رواه ابن ماجه والحاكم، **مشكاة المصابيح** للتبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٥)، ج٣، ص١٤٣٣.

[٧] انظر:الأصفهاني، الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: الحسين بن محمد بن المفضل، (دمشق: دار النشر/ دار القلم، د. ت)، ج١، ص٣٤٦.

[٨] انظر:محمد، سراج الدين، **الزهد في الشعر العربي**، ص٥ – ٧ .

[٩] انظر: السابق نفسه.

[١٠] انظر: خفاجي، محمد عبد المنعم، **الأدب في التراث الصوفي**، (القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٨٠)، ص١٩٥.

[١١] انظر: أبو زيد، علي إبراهيم، **زهد المجّان في العصر العبّاسي**، (القاهرة: الفجالة: دار الثقافة للطباعة والنشر،١٩٨٦)، ص٤٤.

[١٢] انظر: حمدان، عبد الرحيم حمدان، **القيم الخلقية في شعر الزهد في الأندلس** – www.diwanalarab.com بتاريخ ٠١ – ١٢– ٢٠٠٩.

[١٣] انظر: غلادنثي، شيخو أحمد، **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا**. (الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٣) ص١٠٤.

[١٤] انظر: السابق نفسه، ص١٢٦.

[١٥] انظر: السابق نفسه، ص١٢٧.

[١٦] الإلوري، آدم عبد الله، **مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية**. (لاغوس: مطبعة الثقافة العربية الإسلامية، ط٢، ١٩٩٢) ص١١٣.

[١٧] انظر: البخاري، الجنيد بن محمد، **إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين محمد بللو**، (مخطوطة) (د. ت.) ص. ٧٢ وما بعدها.

[١٨] انظر: غلادنثي، شيخو أحمد، **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا**، ص١٢٦.

١٩. Abubakre, R.D., *The Interplay of Arabic and Yoruba Cultures in South-Western Nigeria* , (Nigeria, *Darul Ilm* Publishers, ٢٠٠٤), p.٣٧٦.

[٢٠] السّلاد نوع من الأطعمة اللذيذة يُصنع من الخضروات ويتاناوله المثقّفون وأهل الثروة.

[٢١] والجكاد نوع من الثياب لطيف وجميل المنظر، وهو معروف لدى النيجيريين.

[٢٢] انظر: تجاني، داوود أحمد أديكيليكن، **القصيدة الدالية الزهدية**، (نيجيريا: جامعة إبادن، قسم الدراسات العربية والإسلامية، ٢٠٠٣)، ص٧.

[٢٣] سورة المؤمنون: الآية، ١١٥.

[٢٤] انظر: تجاني، داوود أحمد أديكيليكن، **القصيدة الدالية الزهدية**، مرجع سابق، ص٦.

[٢٥] انظر: أبو زيد، علي إبراهيم، **زهد المُجّان في العصر العبّاسي**، (الفجالة: دار الثقافة للطباعة والنشر،١٩٨٦)، ص٢٤٣.

[٢٦] انظر: السعيد، محمد مجيد، **الشعر في عهد المرابطين والموحّدين بالأندلس**، (العراق: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠)، ص٢٦٧.

[٢٧] انظر: تجاني، داوود أحمد أديكيليكن، **القصيدة الدالية الزهدية**، مرجع سابق، ص٥ – ٦.

[٢٨] انظر: أبو زيد، علي إبراهيم، **زهد المُجّان في العصر العبّاسي**، (الفجالة: دار الثقافة للطباعة والنشر،١٩٨٦)، ص ٢٨٤ وما بعدها.

[٢٩] انظر: تجاني، داوود أحمد أديكيليكن، **القصيدة الدالية الزهدية**، ص ٦-٧.

[٣٠] انظر: السابق نفسه، ص ٨- ٩.

[٣١] انظر: تجاني، داوود أحمد أديكيليكن، **القصيدة الدالية الزهدية**، ص ٥.

[٣٢] انظر: حمدان، عبد الرحيم حمدان، **القيم الخلقية في شعر الزهد في الأندلس**.

[٣٣] انظر: تجاني، داوود أحمد أديكيليكن، **القصيدة الدالية الزهدية**، ص ٦.

[٣٤] انظر: السابق نفسه، ص٧.

[٣٥] انظر: السابق نفسه، ص ٨ – ٩.